

المشهد الإعلامي من خلال تطور المشهد السياسي في المغرب

تمهيد:

إن الحديث عن المشهد الإعلامي من خلال تطور المشهد السياسي في المغرب يحتم علينا الرجوع إلى العهد الأول الذي بدأ من خلاله تطور المنظومة السياسية المغربية ككل، وذلك من أجل أخذ فكرة موجزة عن تاريخ المغرب السياسي في العصر الحديث. هذا التاريخ الذي عرف ثلاثة عهود سياسية تمثلت في:

1. القرن الذي كانت فيه الحكومة المركزية التقليدية هي الحاكمة، وهذا ما كان يسمى بـ: "المخزن" (1). وكانت هذه أطول فترة في تاريخ الحكم السياسي المغربي، بحيث أن بعض الباحثين والمؤرخين الفرنسيين كانوا يقسمون المغرب إلى بلد "المخزن" وبلد "السيبة" (2). أي مناطق هادئة مطيعة ومناطق ثائرة.
2. الفترة التاريخية الممتدة ما بين 1912 وأوائل 1956، وهي الفترة التي كان فيها المغرب مستعمرا ومحمية تحكمها فرنسا وإسبانيا.
3. الفترة الثالثة والتي تتمثل في السنوات الأربعين الأخيرة والتي عرفت تطورا سياسيا في ظل الملكية الدستورية والتعددية الحزبية، خاصة من سنة 1955 إلى غاية سنة 1959 بحيث اعتبرت فترة مهمة في التطور السياسي للمغرب.

عرفت الحياة السياسية إذن في المغرب تطورات ملموسة منذ عهد الحماية التي فرضت عليه عام 1912، إلى بداية الاستقلال عام 1956 (3). فكانت بذلك فترة الثلاثينات وخصوصا سنة 1934 هي الحقبة التي بدأ فيها المغرب يعرف بعض التنظيمات السياسية الحزبية، وذلك بعدما كانت الحركة الوطنية آنذاك؛ تطالب بتصحيح الأوضاع داخل نظام الحماية المفروض. ويمكن اعتبار -الرابطة المغربية- هي أول تنظيم يمكن اعتباره سياسيا في المغرب على شكل حزب، وذلك بتشكيله لمكتب يضم كلا من:

"أحمد بلافريج" "محمد حسن الوزاني" "علال الفاسي" وآخرون، لكن وبعد تطورات وقعت على الساحة (4)، وبعد معاناة من الظهير البربري، لجأت مجموعة من الشباب إلى تكوين تنظيم سري جمع كلا من: "علال الفاسي"، "أحمد بلافريج"، "محمد حسن الوزاني" وآخرون، تبلور فيما بعد ليسمى بـ"كتلة العمل الوطني"، حيث سطرت أول برنامج سياسي يهدف إلى المطالبة بإصلاحات سياسية واقتصادية واجتماعية. لكنها لم تكن مهيكلت ولم تكن مضبوطة بأي قانون تنظيمي، فقد ظلت حزبا مغلقا على نفسه إلى حدود سنة 1937، السنة التي تم فيها تكوين لجنة تنفيذية برئاسة "علال الفاسي" و"محمد حسن الوزاني" أمينا عاما.

إلا أن المقيم العام الفرنسي آنذاك NOGUES وبعد حصول انشقاق داخل كتلة العمل الوطني، أمر بحل الكتلة التي انقسمت فيما بعد وظهرت "الحركة القومية" برئاسة "حسن الوزاني"، و"الحزب الوطني" برئاسة "علال الفاسي".

لقد مرت الحركة الوطنية المغربية خلال فترة 1937/1943، بعدة مخاض سياسي تكونت فيها عدة تجمعات وطنية سياسية حزبية، بحيث كان همها الوحيد هو تحقيق قفزة نوعية من الناحية السياسية أمام الحماية. فظهر في تطوان التابعة آنذاك للمنطقة الخليفية:

- حزب "الإصلاح الوطني" بزعامه "عبد الخالق الطريس".

- حزب "الوحدة المغربية" بزعامة "المكي الناصري".

وفي خضم هذه الأحداث، وفي تلك الفترة التي سميت بفترة "سياق الاستقلال" (5)، كان الجميع ينشد كلمة الاستقلال من الحماية؛ فكانت هي الهدف الأسمى لجميع الأصوات المنادية بالحرية. بدأت الاجتماعات السياسية تكثر ببروز الزعماء الشباب، وفي فترة دجنبر 1943 أسس "حزب الاستقلال" من طرف "أحمد بلافريج" الذي شكل أعضائه أساسا من أفراد الحزب الوطني السابق. هنا ستبدأ مرحلة جديدة في فترة "سياق الاستقلال"، كما سماها الدكتور محمد ضريف؛ وذلك بظهور أحزاب سياسية أخرى موازية لحزب الاستقلال الذي اعتبر هو الأساس وكأول قاعدة سياسية بمفهومها الحزبي في المغرب..

ويبقى التساؤل المطروح، هو مدى توافق الإعلام آنذاك مع جميع هذه التطورات، وما مدى تأثيره على المجتمع المغربي في ظروف كان الشعب فيها لا يستطيع فك رموز القراءة والكتابة، اللهم إذا استثنينا النخبة المتعلمة التي كانت في غالبيتها متكونة من الطلبة.

فمنذ البداية أخذ التنظيم الحزبي السياسي في المغرب يفكر في إصدار دوريات تمكنه من التعبير والإعلان عن المواقف التي يتخذها في شتى المواضيع، لكن قانون الحماية كان يقف ضدا على إرادة تلك التنظيمات الحزبية السياسية.

فقد تم التحايل على هذا القانون، وتم إصدار مجلة "MAGHREB" تحت إرادة الفرنسي "LONEG" (6)، وبإشراف "أحمد بلافريج" في رئاسة التحرير. كما تم إنشاء صحيفة أخرى أسبوعية تحت اسم "ACTION DU PEUPLE" (7)، بمدينة فاس، وكان يشرف عليها محمد حسن الوزاني سنة 1933، فأصبحت تسمى فيما بعد بـ"VOLONTE DU PEUPLE". وغالبا ما كانت جميع هذه المحاولات تتوقف وتعرقل من طرف المستعمر، لأن جل موضوعاتها كانت تتمحور حول محاربة الظهير البربري من خلال تبيان خلفياته وآثاره السلبية على الوضع الداخلي.

وبذلك كانت البوادر الأولى للكتابة الصحفية، ولو أنها بلغة المستعمر، بحيث كانت الناطق الرسمي باسم التنظيمات الحزبية السياسية في نشأتها الأولى. هذه الأخيرة التي تستوجب التطرق إليها بشيء من التفصيل لكي نبرز الدور الذي لعبه الإعلام، والمتمثل في الصحافة المكتوبة من خلال تطور الظاهرة الحزبية في المغرب؛ وفي إظهار الخطاب المباشر للإعلام الحزبي اتجاه المواطن المغربي. وبذلك؛ تكون العلاقة الحميمة "حزب - صحافة" أو "سياسة - إعلام" ذات ارتباط وثيق يستدعي الوقوف عنده بشيء من التفصيل التاريخي لكي يصبح متيسرا في هضمه ومستساغا في فهمه.

إن علاقة الظاهرة الحزبية بالصحافة الوطنية، علاقة ذات خلفيات ظاهرة وباطنة.. علاقة لا يمكن الجزم بأنها سليمة من أي توجه أيديولوجي؛ وبالتالي تكون إلزامية الخوض في محركات الممارسة الصحفية ضرورية.. والبحث في الجوانب المحركة لهذه الممارسة، سواء كانت خفية أو مضمرة؛ أكثر إلزامية وحتمية. من هنا تتأكد علاقة الصحافة بالحزب، والمغرب عرف الظاهرة الحزبية منذ عهد الحماية. فكان التطور الحزبي والصحافي مواكبا بعضه البعض الآخر.. وكان التعدد أيضا من سمات التطور الذي فرض تضارب الأفكار والمذاهب سواء في الغايات أو في الوسائل، بداية من مغرب الحماية وصولا إلى مغرب الملكية الدستورية والتعددية الحزبية.

والملاحظ أيضا أن هذا التعدد لا يخلو من سلبيات، فكلما ظهرت فئة بأفكار معينة ومضادة للفئة الأخرى، إلا وانشقت وكونت لنفسها فريقا جديدا بأفكار جديدة ورؤى فكرية وسياسية جديدة تستوجب خلق منبر جديد من أجل التعبير والتبليغ. وهذا ما أكدته التجربة الحزبية / الصحافية المغربية منذ نشأتها الأولى إلى يومنا هذا.

الهوامش:

- (1) دوكلاس أشفورد: التطورات السياسية في المملكة المغربية، دار الكتاب - الدار البيضاء - 1963، ص. 13.
- (2) عبد الكريم غلاب: تاريخ الحركة الوطنية بالمغرب، الجزء الأول، ص. 58. مطبعة الرسالة، الرباط.
- (3) تجدر الإشارة هنا إلى أن رجوع الملك محمد الخامس من المنفى كان في 16 نوفمبر 1955 وفي اليوم الموالي، أي في 17 نوفمبر ألقى الملك خطبة أكد فيها على نهاية الاحتلال وبزوغ فجر الحرية والاستقلال. وفي 18 نوفمبر كان عيد العرش، بينما التوقيع النهائي على وثيقة الاستقلال كان في 2 مارس 1956.
- (4) للمزيد من الاطلاع، الرجوع إلى دوكلاس أشفورد، مرجع سابق، الفصل الثاني - أصول القومية المغربية.
- (5) محمد ضريف، الأحزاب السياسية المغربية 1934/1975. منشورات المجلة المغربية لعلم الاجتماع السياسي، الدار البيضاء 199، ص. 54.
- (6) محمد ضريف، المرجع السابق .. ص. 31.
- (7) دوكلاس أشفورد، مرجع سابق .. ص 51.